

الدراسات والأبحاث | Research Papers

”إشكاليّة توظيف المفاهيم الأنثروبولوجيّة في دراسة المجتمعات العربيّة“.

“The problematic of
employing Anthropological
Concepts in the Study of
Arab societies”.

نور الدّين كوسة | Nouredine koussa⁽¹⁾*

(1) * أستاذ محاضر في اختصاص الأنثروبولوجيا التّجافيّة، بقسم علم الاجتماع جامعة سطيف -٢- الجزائر.
الإيميل: koussanouredine@yahoo.fr

ملخص البحث:

يهدف هذا البحث إلى إثارة مسألة توظيف المفاهيم الأنثروبولوجية في دراسة المجتمعات العربية، وهي مسألة تنطوي على عناصر إشكالية ترتبط بمحور "المفاهيم"، وهذا من خلال قراءة في نماذج من تلك المفاهيم الواردة ضمن الدراسات الأنثروبولوجية التي أجراها بعض الباحثين الغربيين حول المجتمعات العربية، والجدير بالإشارة أنّ هيمنة المركزية الغربية المرتبطة بسياقات إنجاز الدراسات والبحوث الأنثروبولوجية، قد أثرت في توجيه الرّؤى والتصوّرات والأفكار ذات الصّلة بالثقافات المحليّة، وكذا عمليّة توظيفها ونقلها إلى لغة الباحث، وهو ما أفضى إلى تطويع تلك الدراسات الأنثروبولوجية بما يتماهى والنسق الثقافي الذي ينتمي إليه الباحث الغربي، ممّا أدّى إلى إسقاط وفرض مفاهيم تعسّفية مُستقاة من ثقافة الأنثروبولوجي، وليس من ثقافة المجتمع المدروس، وهو ما يبرز بجلاء وفي مواضع وشواهد كثيرة من الدراسات التي أنجزها الباحثون الغربيون حول المجتمعات العربية، وعلى وجه الخصوص ضمن المحاور ذات الصّلة بالخصوصيّات الاجتماعيّة والثقافيّة.

كلمات مفتاحيّة: الأنثروبولوجيا، الثقافة، المجتمع العربي، الباحث الغربي.

Research Title:

"The problematic of employing Anthropological Concepts in the Study of Arab societies".



Key Concepts: anthropology, culture, Arab society, western researcher.

Abstract:

This study aims at raising the problematic of employing Anthropological Concepts in the Study of Arab societies, which is an examination that includes problematic elements, associated with the axis of "concepts". This study is conducted through reading examples of concepts contained within the anthropological studies led by some Western researchers about Arab societies. It is worth noting that the prevalence of Western centralism, which is linked to contexts for the completion of anthropological studies and research, has affected the directing of visions, perceptions and ideas related to local cultures. Moreover, the process of interpreting and transferring these concepts into the researcher's language, which has led to the adaptation of those anthropological studies to what is consistent with the cultural pattern to which the Western researcher belongs, caused them to drop and impose arbitrary concepts derived from the anthropological culture and not from the culture of the studied society. This becomes evident in many studies carried out by Western researchers on Arab societies, particularly within themes associated with social and cultural specificities.

مقدّمة:

تُشكّل عمليّة البحث في المفاهيم وما تعلّق بها من قضايا النّشأة والتّداول وكذا التّوظيف؛ واحدة من المسائل المهمّة في حقل الدّراسات ذات الصّلة بعائلة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، وهذا بفعل مركزيّة المفاهيم باعتبارها أحد المفاتيح الأساسيّة في صياغة أيّ خطاب علميّ وبلورة مضامينه المعرفيّة، حيث سيكون مدار اشتغالنا في هذا البحث منصباً بشكل أساسي على حقل الدّراسات الأنثروبولوجيّة، باعتبارها من العلوم التي بدأت تأخذ طريقها إلى التوسّع والانتشار خلال المرحلة الحديثة،

البحوث الأنثروبولوجية باعتبارها أحد المداخل لمعرفة صورة المجتمعات العربية، ثم يأتي العنصر الموالي ليكون منصباً على نقاش محدّدات إنتاج مضامين الخطاب الأنثروبولوجي، مركزين بوجه خاص على المحدّدات المرتبطة بإكراهات البيئة الاجتماعية والثقافية لمُنتج الخطاب، وكذا ما ارتبط بحضور الآخر بشكل مباشر وغير مباشر خلال عملية الكتابة الأنثروبولوجية، وهو ما شكّل أرضية لرصد انعكاسات مُحدّدات إنتاج مضامين الخطاب الأنثروبولوجي التي تمّ استعراضها على المفاهيم، بما أتاح إعطاء أمثلة عن بعض المفاهيم، من خلال استعراض لنماذج من هذه الأخيرة التي طالها الخلل في عملية التوظيف ضمن الدّراسات الأنثروبولوجية الغربية، لنأتي إلى العنصر الأخير الذي يُعدُّ بمثابة مُقترح عملي لإعادة النّظر في تلك المفاهيم، ثم خاتمة اشتملت على بعض النّتائج الأولية.

١. مسار تبلور البحوث الأنثروبولوجية باعتبارها أحد المداخل لمعرفة صورة المجتمعات العربية:

لقد أسهمت ظروف ومُلابسات نشأة الأنثروبولوجيا منذ النّصف الثّاني من القرن الثّاسع عشر، وتبلورها فيما بعد كتخصّص علمي قائم بذاته ضمن حيز الممارسة الأكاديمية الفعلية في الجامعات الغربية، بداية بالولايات المتّحدة الأمريكية ثم بريطانيا

والتي تزامنت مع وقوع البلدان العربية تحت وطأة الاحتلال، ممّا جعلها مجالاً خصباً لتلك الدّراسات التي أنجزت من قبل الباحثين المنتمين للمدارس الغربية، وهي دراسات انصبّت بوجه خاص على الخصوصيات الثقافية والاجتماعية.

ولعلّ أهم ما لُوّظ عن تلك الدّراسات الأنثروبولوجية هو الشّق المتعلّق بالجهاز المفاهيمي، الذي ميّزه سوء التّوظيف، حيث تمّ استخدام بعض المفاهيم الوافدة من النّسق السّوسيو-ثقافي الغربي بشكل تعسّفي، دون مراعاة انسجام الحمولة الدلالية لتلك المفاهيم للتعبير عن القضايا المدروسة المرتبطة بالمجتمع العربي موضوع تلك الدّراسات، ووفق ما تشكّل لدينا من تصوّرات بخصوص ضرورة النّظر في تلك المفاهيم، اندرج بحثنا الذي جاء بعنوان: إشكالية توظيف المفاهيم الأنثروبولوجية في دراسة المجتمعات العربية، من خلال قراءة في نماذج من المفاهيم الواردة ضمن تلك الدّراسات حول المجتمعات العربية.

وقد جاء هذا البحث في مجموعة من العناصر، فكانت البداية بتناول مسار تبلور

أسهمت في توجيهها -الدراسات والأبحاث- نحو الانكباب على دراسة المجتمعات غير الغربية ومن ضمنها المجتمعات العربيّة، إذ «... طبعت ظروف الغزو الاستعماري بعمق تطوّر الدراسات الإثنولوجيّة والأثنوبولوجيّة...»^(٥)، وهو تطوّر كان ميدانه والموضوع المفضّل له أغلب المجتمعات التي وقعت تحت هيمنة الاحتلال ومن ضمنها المجتمعات العربيّة.

حيث اندرجت تلك الدراسات الأثنوبولوجيّة ضمن سياق التزامها بمشروع تغذية المعارف عن الآخر غير الغربي، بغرض تعميق الفُهوم ذات الصّلة بمختلف القضايا والمجالات الخاصّة بالمجتمعات التي كانت مجالاً لتلك الدراسات، ممّا جعلها تُوصف في أغلب المراجع المهتمّة بهذا النّوع من الدّراسات بأنّها قد اندرجت في خدمة الأهداف الاستعماريّة، بحكم أنّ «الإمبرياليّة الاستعماريّة المعاصرة تتوافق زمنياً مع الأثنوبولوجيا المعاصرة فكلتاها تعودان إلى النّصف الثّاني من القرن الثّاسع عشر»^(٦)، إذ شكّل «... البحث الدّقيق في أحوال -المجتمعات العربيّة- وتقصّي أخبارها في الماضي والحاضر...»^(٧)، أحد الأهداف

وبقيّة البلدان الأوربيّة لاحقاً، في رسم الملامح الأساسيّة التي ميّزت الأثنوبولوجيا طيلة فترة زمنيّة ناهزت قرناً من الزّمن تقريباً، من خلال تميّزها بالتوجّه الأحادي في دراسة المجتمعات، ضمن سياق ما عُرف بالآخر غير الغربي^(٨)، مُمثّلاً في كل من المجتمعات البدائيّة «... التي كانت على وشك الاختفاء تجاه توسّع الحضارة الأوربيّة»^(٩)، وكذا المجتمعات التّقليديّة غير البدائيّة التي خضعت للاستعمار^(١٠)، وهذا بمقابل تغييب دراسة المجتمعات الغربيّة باعتبارها المجتمعات التي ينتمي إليها أغلب الباحثين في الأثنوبولوجيا خلال هذه المرحلة.

إنّ التوجّه الأحادي الذي ميّز الدّراسات الأثنوبولوجيّة المنجزة من قبل الباحثين الأثنوبولوجيين الغربيين، وهم شخصيات ذوو مشارب فكريّة وانتماءات سوسيو ثقافيّة متباينة، سواء من المنتمين إلى المؤسّسة العسكريّة أو أولئك المنتمون إلى وظائف إداريّة مختلفة، إضافة إلى كون هذه الدّراسات أيضاً قد تمّ إنجازها في ظلّ مناخ تاريخيّ أحاطت به جملة من المُلابسات التي طبعتها أجواء فكريّة وسياسيّة خاصّة، قد

(٢) حول مجال الاهتمامات الأولى التي تميّزت بها البحوث الأثنوبولوجيّة انظر:

Auzias, Jean-Marie, *L'anthropologie Contemporaine*, Paris, Puf, (1976), (p/30-53).-

(٣) أوجيه، مارك، وكولاين، جون بول، الأثنوبولوجيا، ترجمة جورج كُتورة، بيروت، دار الكتاب الجديدة المتحدّة، (٢٠٠٨)، (ص/٢٤).

(٤) لكلرك، جيرار، *الأثنوبولوجيا والاستعمار*، ترجمة جورج كُتورة، بيروت، المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنّشر والتّوزيع، (١٩٩٠)، (ص/١٢).

(5) 1-Pierre, Bonte, et Michel, Izard, *Dictionnaire de l'ethnologie et de l'anthropologie*, Paris, puf, (2002), (p/19).

(٦) لكلرك، جيرار، (المرجع السّابق)، (ص/١٢).

(٧) بوطالب، إبراهيم، *البحث الكولونيالي حول المجتمع المغربي في الفترة الاستعماريّة*، ضمن سلسلة ندوات ومناظرات رقم ٤، بعنوان «البحث في تاريخ المغرب - حصيلة وتقويم»، المغرب، منشورات كُلية الآداب والعلوم الإنسانيّة بالزّباط، (١٩٨٨)، (ص/١٠٨).

بمختلف جوانب الحياة الخاصة بالمجتمعات العربية، ومن جهة أخرى وبرغم الأهمية العلمية لهذه الدراسات كما أشرنا إلى ذلك آنفاً، فإنه لا ينبغي لنا بأي حال أن نقفز بها عن سياقها الزمني، وهذا فيما يتعلق بمنظومتها المنهجية والنظرية التي استندت إليها ضمن مقارباتها، فهي وإن كانت قد قاربت كل المجتمعات التي درستها «بخلفيات أيديولوجية مستوحاة من المشروع الاستعماري الذي كان يؤطرها، فإنها استعملت من الناحية التحليلية النظريات والأدوات المفاهيمية التي كانت سائدة في وقتها»^(١١).

والجدير بالإشارة أنّ مسار البحوث الأنثروبولوجية لم يستمر على هذا الحال، حيث شكّلت سنوات الخمسينيات وبداية الستينيات من القرن العشرين مرحلة فارقة ضمن مسار تحوّل اهتمامات تلك البحوث والدراسات، فالأنثروبولوجيا منذ هذا التاريخ «لم يعد موكول لها دراسة المجتمعات التي هي في طور الاضمحلال»^(١٢)، وهذا بفعل الأزمة الإيستيمولوجية التي عرفتها الأنثروبولوجيا، نتيجة الإفراط في الاشتغال على المحاور نفسها، وكذا ابتدال موضوعات البحث ذات الصلة

(١١) منديب، عبد الغني، **الدين والمجتمع - دراسة سوسيولوجية للتدين بالمغرب**، الدار البيضاء، منشورات إفريقيا الشرق، (٢٠٠٦)، (ص ٢٧).

(١٢) أوجيه، مارك، **مهنة الأنثروبولوجيا - المعنى والحرية**، ترجمة محمّد الجويلي، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط١، (٢٠٠٠)، (ص ٣١).

التي ارتكزت عليها تلك الدراسات، غير أنّ ذلك لا يمثل مبرراً كافياً للتقليل من شأنها فيما يتعلّق بقيمتها العلمية على وجه الخصوص.

إذ لا يمكن إنكار أهمية تلك الدراسات الأنثروبولوجية في رصد كثير من ملامح التاريخ الاجتماعي والثقافي للمجتمعات العربية، حيث اعتبرها بعض الباحثين العرب؛ بأنّها «... فتحت المجال أمامنا لرسم صورة عن أنفسنا بمعرفة ماضينا الاجتماعي والسياسي والثقافي والوقوف على أبرز ما عرفته المنطقة من تحولات ميّزت القرنين الماضيين»^(١٣)، ولذا كان من المنطقي أن يتفق أغلب الباحثين المحليين على تميّز تلك الدراسات الأنثروبولوجية، وتحت جميع مسّمياتها^(١٤)، بجانب إيجابي لا يمكن إنكاره، مُعتبرين إيّاها «بمثابة بُنك معلوماتي يستحيل القفز عليه»^(١٥)، ولذا فإنّ تلك الدراسات تُمثّل دون شك أرضية خصبة للباحثين المعاصرين -سواء كانوا محليين أو أجنبين- لا مناص من الرجوع إليها، بغرض إنجاز بحوث ودراسات ذات صلة

(٨) الجويلي، محمّد الهادي، **مجتمعات للذاكرة**، مجتمعات لتسيان، تونس، سراس للنشر، (١٩٩٤)، (ص ٢٧).

(٩) تجدر الإشارة إلى الاختلاف المسجل في الكتابات المعاصرة بشأن التسميات التي تُطلق على تلك الدراسات التي أنجزها الباحثون الغربيون بشكل عام على اختلاف جنسياتهم حول المجتمعات العربية، فمنهم من يميل إلى تسميتها بـ«التنوسولوجيا الكولونيالية»، ومنهم من يسقيها الإثنوغرافيا تارة والإثنولوجيا تارة أخرى، ومنهم من يسقيها الأنثروبولوجيا فقط.

(١٠) معتوق، جمال، **علم الاجتماع في الجزائر - من النشأة إلى يومنا هذا**، الجزائر، منشورات دحلبي، (٢٠٠٦)، (ص ٧١).

٢. محدّدات إنتاج مضامين الخطاب الأنثروبولوجي^(١٥):

على اعتبار أنّ الخطاب الأنثروبولوجي يمثّل حصيلة تفاعل لجملة من العناصر النّاطمة لبنيته، حيث يُنتج وفق شروط معيّنة ليظهر في الأخير ككلّ متكامل، قد يكون متطابقاً ومنسجماً وقد لا يكون، غير أنّه ليس إنتاجاً عشوائياً، وضمن هذا السياق تُطرح بشكل متكرّر وبحدّة أسئلة تتعلّق بصياغة الخطاب الأنثروبولوجي وكيفية إنتاجه، وبمقابل ذلك لا تُطرح أسئلة أخرى وبالاهتمام نفسه حول المحدّدات المتحكّمة في إنتاج ذلك الخطاب، حيث يتم التّركيز على المضامين والأشكال، دون الخوض في السّبق الذي يتعلّق بكيفية تبلور تلك المضامين والأشكال ذات الصّلة بالخطاب الأنثروبولوجي، ولماذا لم تتشكّل بشكل آخر، ولماذا يركّز الخطاب الأنثروبولوجي على بعض المضامين بالذات دون غيرها من المضامين الأخرى، ويمكن في ضوء ما تقدّم أن نحصر محدّدات إنتاج مضامين الخطاب الأنثروبولوجي في عنصرين أساسيين، نرى إمكانيّة استعراضهما على النّحو الآتي:

بالمجتمعات البدائيّة وكذا المجتمعات التّقليديّة المُستعمرة، إلى جانب الحراك النّصاعدي الذي شهدته مناهج ونظريّات الأنثروبولوجيا منذ النّصف الثّاني من القرن العشرين، التي أسهمت مجتمعة في وضع حدّ لذلك التوجّه الأحادي الذي ميّز البحوث الأنثروبولوجيّة طيلة عقود طويلة، من خلال انكبابها على دراسة الآخر غير الغربي كما أشرنا إلى ذلك آنفاً، "... فلقد عرف هذا الفرع المعرفي أزمة هويّة كادت تقضي عليه، بعدما صارت شعوب الأرض كافّة متأثرة من قريب أو بعيد بتوسّع المجتمع النّصاعي، وبعدها أدّت مقاومة الاستعمار إلى تغيير عميق في البنية الحقوقيّة والنّفسيّة لهذه الشعوب داخل المجتمع الدّولي^(١٣)، وقد أدّى ذلك إلى إحداث نقلة نوعيّة في حقل التّفكير الأنثروبولوجي، وهو ما استدعى مراجعات جذريّة لدور وقضايا الدّراسات الأنثروبولوجيّة، وهذا ما سمح ليس فقط بالابتعاد عن التّفوق في دراسات تدور حول المجتمعات العجائبيّة، وإنّما قاد لدراسات أنثروبولوجيّة عن بعض المجتمعات المركّبة..."^(١٤).

(١٣) إيرني، بيار، *إثنولوجيا التّربية*، ترجمة عدنان الأمين، بيروت، معهد الإنماء العربي، (١٩٩٢)، (ص/٣٧٨).

(١٤) باقادر، أبو بكر أحمد، *الدّراسات الأنثروبولوجيّة في التّرجمات العربيّة، ضمن كتاب ندوة «ترجمة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة في العالم العربي المعاصر»*، تحت إشراف ريشار جاكمون، المغرب، منشورات مؤسسة الملك عبد العزيز للدراسات الإسلاميّة والعلوم الإنسانيّة بالدار البيضاء، (٢٠٠٨)، (ص/٥٩).

(١٥) إنّ اعتبار الدّراسات الأنثروبولوجيّة بمثابة خطاب لا ينفى بأيّ حال علميّة الأنثروبولوجيا، بل هو محاولة للإلمام بالمحدّدات التي تحكّم التّفكير الأنثروبولوجي بوصفه خطاباً متجسّداً ضمن فعل الكتابة، حول هذه المسألة يُنظر: أوجيه، مارك، وكولين، جون بول، *الأنثروبولوجيا*، (المرجع السابق)، *الفصل الخامس «الكتابة»*، (ص/٨٦، ٩٠).

فترات إنتاج الكتابة الأنثروبولوجية مفتاحاً لتحديد وفهم مضامين الخطاب الأنثروبولوجي وتفسيره وفك رسائله، لما تمارسه هذه المسألة أيضاً من إكراهات صريحة وضمنية في فرض مفردات ذلك الخطاب وبلورة أفكاره وتضمينه لجملة من الرسائل حول هذا الآخر باعتباره محوراً لهذه الكتابة الأنثروبولوجية، إذ "يُخضع الأنثروبولوجي وهو يكتب لغيره من الناس الواقع الذي يصفه، ويجعل منه موضوعاً أنثروبولوجياً يعرضه للنقاش ويطرحه للمقارنة"^(١٦).

حيث اندرجت الكتابات التي أنجزها الباحثون الغربيون عن المجتمعات غير الغربية، ومنها المجتمعات العربية بوجه خاص "بوصفها المجتمع الآخر المختلف"^(١٧)، كما أنّ الخطاب الأنثروبولوجي المُنتج يحتمل أنّه موجه إلى داخل النسق الذي مُورست ضمنه الكتابة الأنثروبولوجية مثلما يحتمل أيضاً أنّه موجه إلى خارج هذا النسق، وبهذا فإنّ الآخر يكون حاضرًا ضمن جميع حيثيات إنتاج الخطاب الأنثروبولوجي بشكل مُعلن أو غير مُعلن، فالباحث الأنثروبولوجي في ضوء ما تقدّم حسب رأي الأنثروبولوجي (مارك أوجيه- Marc Augé) «يطمح إلى إنتاج معرفة موجهة إلى جمهور، جمهور مختص بل ومهنيّ؟، أو جمهور أكثر شمولاً؟، وهذا يُشكّل أحد رهانات الكتابة، وهي مسألة

٢-١- ما ارتبط بإكراهات البيئة الاجتماعية والثقافية لمُنتج الخطاب:

لا شك أنّ من ضمن المحدّات التي تُؤطر بنية الخطاب الأنثروبولوجي تلك المرتبطة ببيئة وبشخصية مُنتجه، التي تُدرجه في خضم علاقة جدلية بمجموعة من الإكراهات المباشرة وغير المباشرة، ممّا يجعله منطويًا على جملة من القوانين المرتبطة بتلك الإكراهات المُشار إليها، التي تظهر بشكل غير واعٍ وغير مقصود في غالب الأحيان، أمّا بخصوص الإكراهات الاجتماعية، فهي تتعلّق في المقام الأوّل ببيئة مُنتج ذلك الخطاب، وانتماءاته الأسرية، وطبقته الاجتماعية، وكذا تمثّلاته لذاته ولبيئته الاجتماعية التي انحدر منها، في حين أنّ الإكراهات الثقافية تتعلّق بمستواه التعليمي، وانتمائه الأكاديمي، ونوعية تخصصه ومصادر قراءاته، وكذا الخصوصيات المُميّزة لبيئته الثقافية؛ من حيث درجة انفتاحها على ثقافة الآخر القريب والبعيد، أو انغلاقها.

٢-٢- ما ارتبط بحضور الآخر بشكل مباشر وغير مباشر خلال عملية الكتابة:

يبدو من المتعدّر إغفال فكرة أنّ الخطاب الأنثروبولوجي هو في المقام الأوّل خطاب عن الآخر، ولذا فإنّ إدراك أهمية حضور الآخر بشكل مباشر وغير مباشر تُعدّ في جميع

(١٦) أوجيه، مارك، مهنة الأنثروبولوجي - المعنى والحرية، (المرجع السابق)، (ص/٤٥).

(١٧) باقادر، أبو بكر أحمد، (المرجع السابق)، (ص/٥٧).

٣. انعكاسات مُحدّات إنتاج مضامين الخطاب الأنثروبولوجي على المفاهيم:

يقودنا إمعان النَّظَر في كثير من المفاهيم المتعلّقة بالخصوصيّات الاجتماعيّة والثّقافيّة للمجتمعات العربيّة الواردة ضمن البحوث والدراسات الأنثروبولوجيّة الغربيّة، إلى أنّها تفتقد الارتباط الوثيق بالنّسق الحاضن لها، وبالحمولة الثّقافيّة ذات الصّلة بالبيئة التي نشأت ضمنها تلك المفاهيم، وهي لا تعدو أن تكون مُلامسة نظريّة في الغالب، إذ لا تملك صلة متينة بالواقع، وهذا بفعل افتقاد تلك الدّراسات الأنثروبولوجيّة إلى الآليات التي تجعلها تلج إلى لبّ الخصوصيّات الاجتماعيّة والثّقافيّة وتغوص في تفاصيلها الدّقيقة، الأمر الذي يُتيح فهمها بشكل أفضل، وليس كما حصل في كثير من تلك الدّراسات المُشار إليها، فبحكم تعذّر استيعاب الدّلالات الرّمزيّة الكامنة ضمن المفاهيم المُعبّرة عن تلك الخصوصيّات، فقد ترتّب عن ذلك سوء فهم لازم اندراج هذه المفاهيم في الدّراسات الأنثروبولوجيّة.

وعلى اعتبار أنّ هناك إكراهات معرفيّة ذات صلة بخصوصيّة البحوث الأنثروبولوجيّة من حيث طبيعتها الميدانيّة، ضمن سياق ما يُعرف بمقتضيات التّواصل مع مجتمع الدّراسة بغرض الحصول على مادّة علميّة حول

تُطرح على الأنثروبولوجي، كما تُطرح على الفيلسوف والمؤرّخ»^(١٨).

ووفق المعطيات الآنفه الذّكر أضحى من الصّوري خلال عمليّات القراءة التّقديّة للدّراسات الأنثروبولوجيّة الغربيّة حول المجتمعات العربيّة: مراعاة تلك المحدّات المُشار إليها ضمن العنصرين السّابقين، مع ضرورة انفتاح تلك القراءة أيضًا على عناصر أخرى مساعدة، منها بوجه خاص ما تعلّق بالسياقات الزمانيّة لتلك الدّراسات، بغرض فهم كيف أسهمت هذه السياقات في إنتاجها، وكخلاصة لما سبق، يمكن القول بأنّ الرّؤى والأفكار الثّأوية ضمن الخطاب الأنثروبولوجي تتداخل فيها التّجربة الشّخصيّة للكاتب والدّوق العام السّائد، إلى جانب نوعيّة الجمهور الذي يستهدفه ذلك الخطاب، بما يجعل تلك الخلفيّات المُشار إليها بمثابة البنية النّاطمة لذلك الخطاب الأنثروبولوجي التي تعمل على تحديد مضامينه وأشكاله ونوعيّة المفردات التي يتم توظيفها، إضافةً إلى الجهاز المفاهيمي بشكل خاص الذي يمثّل جوهر الخطاب الأنثروبولوجي وركيزته الأساسيّة.

(١٨) أوجيه، مارك، مهنة الأنثروبولوجي - المعنى والحرية، (المرجع السّابق)، (ص/٤٥).

الذّات الدّارسة الحق في الوصاية على المجتمع المدروس وذلك عن طريق أسلوب تقديمه... ومن ثمّ فإنّه يعكس ذلك في أسلوب كتابة وثوقيّة عن هذه المجتمعات^(٢٠)، ممّا أدى إلى إسقاط وفرض مفاهيم تعسفيّة مُستقاة من ثقافة الأنثروبولوجي، وليس من ثقافة المجتمع المدروس، ولكون الكتابة الأنثروبولوجيّة ليست نقلًا حرفيًا للواقع، بل هي تأويل لهذا الواقع من خلال نقله عبر عمليّة التّحرير والتّدوين من منظور الآخر الذي يمارس فعل الكتابة، فإنّ عمليّة توظيف المفاهيم التي تمت عبر الكتابات الأنثروبولوجيّة حول ثقافة المجتمعات العربيّة، لم تكن تُعبّر في غالب الأحيان عن وجهة نظر أفراد مجتمعات الدّراسة وتمثّلاتهم ورؤاهم المختلفة للأشياء، بل تمّت في غالب الأحيان استنادًا إلى رؤية الباحث وتمثّلاته للأشياء والأفكار تبعًا لانتماءاته السّوسيوثقافيّة وخلفياته الأيديولوجيّة، انطلاقًا من بيئته تارة وكذا انطلاقًا من مركزيّة تفكيره تارة أخرى.

وقد أمضى ذلك إلى القيام بجهد تعلّق بالسّعي إلى تحويل معانيها، من خلال اقتباس معاني مُستلّة من السّجل الثّقافي للآخر المُمارس لفعل الكتابة، وهو ما يبرز بجلاء وفي مواضع وشواهد كثيرة من تلك الدّراسات المُشار إليها، الأمر الذي يوحى بوجود خلل في عمليّة التّوظيف وما يرتبط بها من حيثيّات، ضمن سياق حقل البحوث الأنثروبولوجيّة التي أنجزها الباحثون الغربيون حول المجتمعات

الموضوع، فإنّ هذه المقتضيات قد فرضت على الباحث الأنثروبولوجي توظيف نمط معيّن من الخطاب يَعْجُ بمفردات لغة المجتمع المدروس، لأنّ جزءًا لا يُستهان بأهمّيته من المعارف الأنثروبولوجيّة حول المجتمعات العربيّة عبارة عن أبحاث ترتكز على دراسة الثقافة بشقيها المادّي واللامادّي، وبالتالي فإنّ هذه الأخيرة اقتضت من الباحث التّفاعل والاشتغال على مدوّنة من المفردات والمعاني التي تفرض دراية واسعة بلغة المجتمع المدروس وحمولتها الثّقافيّة، إذ "لا يمكن أن نفصل اللّغة عن ثقافة مُتكلميها ونظرتهن إلى العالم ووعيهم بالتّاريخ والوجود والعدم"^(١٩)، وهو ما ألقى بتبعات إضافيّة على كاهل هؤلاء الباحثين الغربيين في انتقاء قاموس تلك اللّغة: الذي يُراعي خصوصيّة مجتمع الدّراسة لضمان التّواصل الفعّال معهم، بما يعكس على أهداف البحث الأنثروبولوجي وما ينطوي عليه من نتائج.

ولا شكّ أنّ هيمنة المركزيّة الغربيّة المرتبطة بسياقات إنجاز الدّراسات والبحوث الأنثروبولوجيّة حول ثقافة المجتمعات العربيّة، قد أثّرت في توجيه الرّؤى والتصوّرات والأفكار ذات الصّلة بالثقافات المحليّة، وكذا عمليّة توظيف المفاهيم ونقلها إلى لغة الباحث، وهو ما أمضى إلى تطويع تلك الدّراسات الأنثروبولوجيّة بما يتماهى والتّسق الثّقافي الذي ينتمي إليه الباحث الغربي، من خلال "إعطاء

(١٩) أوجيه، مارك، مهنة الأنثروبولوجي-المعنى والحريّة، (المرجع السابق)، (ص/٠٩).

(٢٠) باقادر، أبو بكر أحمد، (المرجع السابق)، (ص/٥٧).

٤-١- مفهوم القبيلة:

لقد أُعْتُبِرَ مفهوم القبيلة من ضمن المفاهيم المحوريّة الذي عُرف بحضوره الثّابت ضمن حقل الدّراسات الأنثروبولوجيّة، حيث رافق هذا التّخصّص المعرفي منذ بداياته الأولى، وواكب أيضًا مسيرة تبلور أُسسها النّظريّة والمنهجيّة؛ ولا شكّ أنّ اندراج القبيلة كمفهوم محوريّ ضمن الدّراسات الأنثروبولوجيّة مرده كون التّنظيمات القبليّة شكّلت واحدة من أبرز مجالات البحث التي طبعت مسار الدّراسات الأنثروبولوجيّة الغربيّة حول المجتمعات العربيّة؛ التي استقطبت اهتمام الأنثروبولوجيين الغربيين عبر كامل الفضاء الجغرافي للمنطقة العربيّة ضمن مراحل مختلفة وسياقات متباينة، وضمن هذا السّياق فقد «كشف (غولدييه-Goldier) كيف أبانت أزمة مفهوم القبيلة على الأُسس التّجريبية للمسيرة الأنثروبولوجيّة»⁽²¹⁾، بما عزّز طموح الأنثروبولوجيين لمضاعفة جهودهم بغرض تقديم أطروحات تُفضي إلى مُلامسة بعض نقاط الظّل التي تُميّز هذا المفهوم الحيوي.

ولا شكّ أنّ المسيرة التي قطعها الدّراسات الأنثروبولوجيّة قد أسهمت في إعادة النّظر في كثير من المسلّمات المرتبطة بمفهوم القبيلة، فبعد أن كان التّصوّر السائد لدى الأنثروبولوجيين يميل إلى اعتبار التّنظيم

العربيّة على سبيل المثال، وعلى وجه الخصوص تلك المحاور ذات الصّلة بالعناصر الاجتماعيّة والثّقافيّة للمجتمعات العربيّة.

٤. استعراض لنماذج من المفاهيم التي طالها الخلل في عمليّة التّوظيف:

إذا كان من المتعدّد حصر كل المفاهيم التي طالها الخلل ضمن الدّراسات الأنثروبولوجيّة الغربيّة حول المجتمعات العربيّة، فإننا سنقتصر على استعراض عدد محدود من تلك المفاهيم التي يمكن وصفها بالمفتاحيّة، نظرًا لما تحثّه هذه الأخيرة من حضور لافت ضمن الدّراسات الأنثروبولوجيّة الغربيّة، باعتبارها مفاهيم مرتبطة بالبنية الاجتماعيّة للمجتمعات العربيّة بقدر ارتباطها أيضًا بالبنية الثّقافيّة، وهذا بفعل جملة من الاعتبارات المتّصلة بمهام الأنثروبولوجيين الغربيين خلال مرحلة مبكّرة من تاريخ البحث الأنثروبولوجي حول المجتمعات العربيّة، حيث ركّزوا على بعض المفاهيم دون غيرها، وهي مفاهيم انسجمت وخصوصيّة البحث الأنثروبولوجي خلال تلك المرحلة، كما ارتبطت بالسّياقات التي طبعت علاقة المجتمع العربي بالآخر الغربي، والتي ميّزها سعي هؤلاء الأنثروبولوجيين الحثيث لاكتشاف البناء الاجتماعي والثّقافي للمجتمع العربي، من خلال الانكباب على إنجاز دراسات ذات الصّلة بمواضيع الاشتغال المُشار إليها.

(21) Bonte, Pierre et Izard, Michel, (op.cit), (p/720).

إليها كانت عبارة عن تصوّرات نظريّة؛ إذ لم تُقرن بفضاء جغرافي مُعيّن، فقد كان للمفكّر **(جاك بيرك-ز. Berque)**، الفضل في إكسابها بعض المشروعات، من خلال وضع تلك المقترحات موضع الاختبار^(٢٥).

ولذا فإنّ بيرك «كان أوّل من تبه إلى خطر اعتبار قبائل شمال إفريقيا بغير ما هي عليه»^(٢٦)، وهو ما جعل هذا الرّأي من البصمات التي تُضاف إلى مساهمات هذا المفكّر في مجال البحوث ذات الصّلة بموضوع القبيلة بشكل خاص، من حيث «القدرة على وضع الجزئي في إطار الكلّي، وتفسير الكلّي على ضوء عناصره المتفاعلة بمنظور لا يُغفل امتدادها التّاريخي»^(٢٧)، الذي أفضى إلى تخليص مفهوم القبيلة مما لازمه من سوء فهم مجاف للموضوعيّة الأنثروبولوجيّة، وهي رؤية يمكن إسقاطها على كل تنظيم قبلي بالبلدان العربيّة، بشرط الامتثال للخصوصيّة المتفرّدة التي تميّز كل تنظيم قبلي على حدة ودراسته بالصّورة التي هو عليها دون الوقوع في فخ التّعميم.

(٢٥) للاطلاع بالتّفصيل على مُقترح جاك بيرك المرتبط بمفهومه للقبيلة بشمال إفريقيا، انظر: - بيرك، جاك، **في مدلول القبيلة بشمال إفريقيا**، ضمن كتاب الأنثروبولوجيا والتّاريخ حالة المغرب العربي، ترجمة عبد الأحد الشّيبتي وعبد اللطيف الفلق، الدّار البيضاء، دار توبقال للنّشر ط. ٢٠٠٧، (ص/١١٣-١٢٥).

(٢٦) أنجلس روك، ماري، **أنثروبولوجيّة الحياة اليوميّة في المتوسّط**، ترجمة حسن بن منصور، الجزائر، دار زرياب للنّشر، (٢٠٠٥)، (ص/٩٧).

(٢٧) ولد خليفة، محمّد العربي، **بيرك المفكّر والإنسان - من فرنّدة إلى سان جوليّان - مجلّة الثقافة**، الجزائر منشورات وزارة الثقافة الجزائريّة، السنة العشريون، العددان ١١-١١١، سبتمبر- ديسمبر (١٩٩٥)، (ص/٣٦).

القبلي يميّز بخاصيّة التّشابه في البنيات المكوّنة له والأنساق التّنظيميّة التي تحكمه^(٢٨)، وهي الفكرة التي تبناها التّطوّريون لفترة طويلة^(٢٩)، فقد انبثقت رؤى جديدة انبنت على الرّصيد المعنوي من الأبحاث المعقّقة التي تُقر ب«البُعد الإقليمي للقبيلة»^(٣٠)، وهو ما أفضى إلى دحض فكرة الخصوصيّة المشتركة للتّنظيمات القبليّة، وفتح الباب على رؤى جديدة: تعرّزت بإنتاج مداخل نظريّة ومفاهيم إجرائيّة ساعدت على وضع حدّ لتلك الإسقاطات التّعسّفية المرتبطة بمفهوم القبيلة بمعزل عن سياقاتها الزّمنيّة وأنساقها السّوسيوثقافيّة.

ولعلّ أهم ما قدّمته المُقاربات الأنثروبولوجيّة من مكاسب منهجيّة بخصوص البحوث ذات الصّلة بموضوع القبيلة بشكل عام، قد تمثّل في إفراز رؤى جديدة ذات صلة بالمفاهيم الإجرائيّة المرتبطة بهذه الأخيرة، إذ لم يعد مقبولاً وفق تلك الرّؤى الأنثروبولوجيّة تبني المفهوم السّائع عن القبيلة، وهو المفهوم المطلق والمنفتح؛ التّبسيطي في دلالاته، بل أضحي من الصّورتي مراعاة عامل الخصوصيّة، من خلال استحضار الحمولة الأنثروبولوجيّة التي تؤثت مفهوم القبيلة؛ بأبعاده التّاريخيّة المُتشابكة بالمكوّن الاجتماعي والثّقافي، وعلى اعتبار أنّ تلك المقترحات المنهجيّة المُشار

(22) Auzias, Jean-Marie, (op.cit), (P/99).

(٢٣) يتأسس المنظور التّطوّري على اعتبار كل الأشكال من المُمارسات والمؤسّسات تمر بشكل موحّد من التحوّلات، وفق مسار خطّي تصاعدي، ولا مجال للخصوصيّة المحليّة، للتوسّع أكثر يُنظر «De la tribu a l'ethnie»، من كتاب: Auzias, Jean-Marie, (op.cit), (p/99-106).

(24) Bonte, Pierre et Izard, Michel, (op.cit), (p/720).

٤-٤- مفهوم الولي:

تلك الدّراسات (الأولياء-les Saints)، "لأنّ العمل الذي يقوم به هؤلاء الرّجال وكل من يقتدي بآثارهم ليحملوا النّاس على الانصياع للأوامر، يعتبر بحق عملاً جبّاراً، ومن السّذاجة ألاّ نعرف كيف نوّظفه لصالحنا"^(٢٨)، ولذا فإنّ تتبّع نماذج من الكتابات الأنثروبولوجيّة التي جاءت ضمن مسار زمني تصاعدي، يُفضي إلى إعطائنا صورة واضحة بخصوص شيوع مفهوم "Saint" بمعنى "القديس" ضمن تلك الكتابات، بما يؤكّد على اقتناع هؤلاء الباحثين في الأنثروبولوجيا على اختلاف المدارس الأنثروبولوجيّة التي ينتمون إليها، بصواب فكرة اختيارهم لهذا المفهوم وجدوى توظيفه ليفي بالحمولة الدلاليّة لمفهوم الولي ضمن لغة مجتمع الدّراسة، حيث يورد أحد الأنثروبولوجيين المهتمّين بالمسألة الدّينية في المجتمعات العربيّة ما يدعم هذا التوجّه، فحسب رأيه "عندما يريد المسلمون وصف أحد بالقداسة، فإنّهم يفضّلون استعمال كلمة ولي الذي يأخذ معنى القريب من الله"^(٢٩).

إنّ حضور مفهوم "القديس"، كمرادف لمفهوم الولي في الكتابات الأنثروبولوجيّة الغربيّة منذ وقت مبكّر^(٣٠)، ما لبث يأخذ سنده المعنوي بفعل كتابات بعض أقطاب

يُشكّل مفهوم «الولي» المنحدر من «الولاية» وجمعه «أولياء» الذي يقترن بموضوع التصوّف، أحد المفاهيم التي تحضّر بقوة ضمن البحوث والدّراسات الأنثروبولوجيّة للباحثين الغربيّين، والذي يرد تحت مُسمّى "Saint"، بمعنى "القديس"، حيث تمّ توظيف هذا المفهوم بكثرة ولا سيما من لدن الأنثروبولوجيين المنتمين للمدرستين الفرنسيّة والبريطانيّة، خلال مناقشة الإشكاليّات المرتبطة بالممارسة الصّوفيّة بوجه خاص، باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من الحقل الدّيني في الفضاء العربي الذي مثّل مجال اهتمام هؤلاء الأنثروبولوجيين، على اعتبار أنّ فترة احتلال البلدان العربيّة قد شهدت تضييقاً كبيراً على أغلب التّنظيمات الدّينية ومن بينها التّنظيمات الصّوفيّة، نظراً لما اضطلعت به هذه الأخيرة من أدوار محوريّة في تأطير المجتمع، وقد أدركت السّلطات الاستعماريّة خلال مرحلة مبكّرة من الاحتلال أهمية احتواء تلك التّنظيمات الصّوفيّة، من خلال تشجيع الدّراسات الإثنوغرافيّة حولها بغرض اختراقها وفهم بنيتها التّنظيميّة.

حيث جاء تركيز تلك الدّراسات الأنثروبولوجيّة على النّشاط الذي اضطلع به قادة تلك التّنظيمات الصّوفيّة المعروفين بشيوخ التصوّف، والذين تُطلق عليهم

(28) Lucas, Philippe, et Vatin, Jean-Claude, *L'Algérie des anthropologues*, Paris, François Maspero, (1975), (P/100).

(29) -Doutté, Edmond, *Les Marabouts-Notes sur L'Islam Maghrébin*- Paris, Ernest- Leroux, (1900),(P/28).

(٣٠) منها على سبيل المثال لا الحصر كتاب (دوتي-Doutté) المُشار إليه الذي طُبِع سنة ١٩٠٠.

«الولي» يحوز على تمثّلات روحية قائمة بذاتها، لا تنفصل عن سياق الرّؤى والممارسات الدّينية في بُعدها الصّوفي، إذ يتميّز هذا المفهوم أيضًا بتنوّع مضامينه ودلالاته الظّاهرة وكذا تشعّب إحياءاته الرّمزيّة، كما يحوز على بنية مفهوميّة تتأسّس على تمثّلات وتصوّرات ذات صلة بفضاءات سوسيوثقافية خاصّة بممارسي التّصوّف، تخضع لمحدّدات الخاصّة والعامّة من النّاس في صلتهم بموضوع الولاية الذي تحكّمه المسافة المعنويّة، وقد استفاضت المعاجم الصّوفيّة المتخصّصة في هذا المفهوم برصد العناصر النّاطمة لبنيته وشرح حمولته الدّلاليّة، بما ينسجم مع المنظور الصّوفي تمثّلًا وممارسة^(٣٢).

٤-٣- مفهوم جمعيّات المجتمع المدني:

يُعتبر مفهوم جمعيّات المجتمع المدني من ضمن المفاهيم التي وردت هي الأخرى بشكل مثير للانتباه في البحوث والدراسات الأنثروبولوجية الغربيّة حول المجتمع العربي، والذي يُقصد منه تلك التّنظيمات الاجتماعيّة المحليّة المعروفة بمسمّيات مختلفة تبعًا لخصوصيّة كل منطقة عربيّة^(٣٣)، حيث إنّ

(٣٢) انظر التّفصيل الدّقيق والتّشرح المستفيض لمفهومي الولاية والولي ضمن المعجم المتخصّص الآتي:
- أبو خزام، أنور فؤاد، معجم المصطلحات الصّوفيّة، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، ط١، (١٩٩٣)، (ص/١٨٧-١٨٩).
(٣٣) للاطلاع على نماذج من تسميات التّنظيمات الاجتماعيّة المحليّة، انظر: - أنجلس روك، ماريا، (المرجع السابق)، (ص/١٠).

الأنثروبولوجيا، ويأتي على رأسهم الأنثروبولوجي البريطاني الشهير (غيلنر-Gellner)، حيث أضحت دراسته التي جاءت بعنوان «Saints of the Atlas»^(٣٤)، مرجعًا لكثير من الباحثين المعاصرين في مجال الأنثروبولوجيا الدّينية، وهي دراسة كان لها صدى واسع في جعل مفهوم «Saints» الذي اعتمده عبر كامل عناصر دراسته للدّلالة على الولي والأولياء، يعرف رواجًا وانتشارًا في أغلب الكتابات الأنثروبولوجية الغربيّة، خاصّة تلك النّاطقة بالّلغة الإنجليزيّة.

غير أنّ تلك البحوث والدراسات الأنثروبولوجية لا تذهب إلى التّمييز بين أصناف الأولياء ولا مراتبهم ولا المسمّيات المتعلّقة بسلمّ الارتقاء إلى درجة الولاية، من خلال انتقاء عبارات وتسميات موحية بذلك، بل تجمّعهم ضمن لفظ «Saint» دون تحليل، على اعتبار أنّ هذا الأخير يرتبط بالقداسة والتّقديس وينطوي على خلط يتعلّق بدمج جميع التّجارب الرّوحيّة تحت مُسمى واحد، والتي تحيل على دلالة القديس، في حين أنّ مفهوم «الولي» المتداول ضمن اللّهجات السّفويّة المحليّة السّعيبيّة أي اللّغة الدّارجة وكذا في اللّغة العالميّة في الفضاء العربي، ينطوي على تمييز بين أنواع تلك التّجارب الرّوحيّة.

ولعلّ ما تبغي الإشارة إليه أنّ مفهوم

(31) E, Saints of the Atlas, Chicago, The University of Chicago Press, (1969). Gellner,-

تحوّلات عميقة في شتى المجالات، بقسط لا يُستهان به في رسم المعالم وتعبيد الطّريق نحو ترسيخ مفهوم المجتمع المدني، والانتقال به من حيز التصوّرات النّظريّة إلى حيز الممارسة على أرض الواقع، حيث ظهرت بعد الثّورة الفرنسيّة عدّة مفاهيم «صارت كعالم الطّريق للمجتمع المدني»^(٣٥)، وقد تجسّد المجتمع المدني على أرض الواقع في القوى المُمثّلة للفئات والشّرائح الاجتماعيّة المستقلّة عن السّلطة، والمهيكلّة ضمن جمعيّات ومنظّمات مدنيّة لخدمة المشاريع الاجتماعيّة والتوجّهات الخاصّة بهذه القوى الاجتماعيّة في مقابل قوى السّلطة، وقد بات أمرًا معروفًا أنّ المجتمع المدني قرين الفكر الغربي، ومع هذا فقد خضع لسيرة تطوّر تاريخي، كانت ذات تعبيرات واستخدامات ليس لها مضمون موحّد، إنّها تعني في كل مرّة شيئًا مختلفًا، لأنّها تأتي في سياق متغيّر بنيويًا وتاريخيًا يولّد حاجات جديدة وأسئلة جديدة يجيب عنها المفهوم^(٣٦).

ولعلّ من ضمن الأسباب الجوهرية التي تقف وراء سوء استخدام مفهوم جمعيّات المجتمع المدني الذي وُظف للدلالة على النّظيمات الاجتماعيّة المحليّة، كونها من ضمن المفاهيم الغربيّة التي تمّ إدراجها في الخطابات الأنثروبولوجيّة الغربيّة حول

(٣٥) أبو بلال، عبد الله الحامد، *ثلاثية المجتمع المدني*، بيروت، الدّار العربيّة للعلوم، (٢٠٠٤)، (ص/ ١٨).

(٣٦) الصبيحي، أحمد شُكر، *مستقبل المجتمع المدني في الوطن العربي*، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربيّة، (٢٠٠٠)، (ص/ ١٧).

تلك البحوث والدّراسات الأنثروبولوجيّة قلّما تستعمل المفاهيم المحليّة، بل تستعيض عنها بمفهوم جمعيّات المجتمع المدني على غرار ما هو موجود في البيئات الغربيّة، وهو ما يُعدّ بهذا المعنى بمثابة إسقاط لمفاهيم مُستلّة من نسق سوسيو-ثقافي غربي مغاير للنّسق السائد في المجتمعات العربيّة، التي توحى بدلالات تعكس مسارًا سياسيًا واجتماعيًا خاصًا بالفضاء الغربي، والذي أفضى إلى ميلاد جمعيّات المجتمع المدني في أوروبا، وهي جمعيّات تخضع لإطار تنظيمي وقانوني واضح المعالم جاء كنتيجة لهذا المسار، في حين أنّ المجتمع المدني كمفهوم عام تنضوي تحته جملة من المفاهيم الجزئية، من ضمنها جمعيّات المجتمع المدني يُعدّ «من المفاهيم التي دأبت التّحاليل المعاصرة على استعمالها بكلّ دلالاته السياسيّة والتّاريخيّة المعروفة، وقد حظي هذا المفهوم بالعديد من النّعريفات المتباينة جوهريًا ومضمونيًا»^(٣٧).

فلهذا المفهوم امتدادات ترجع إلى الفكر الأوربي الحديث، بفعل مجموعة من الاعتبارات التّاريخيّة والسياسيّة، إذ جاء كنتيجة وكثمرة للتّغير الحاصل على مستوى أنماط الأنظمة السائدة في أوروبا، من أنظمة إقطاعيّة مستبدّة إلى أنظمة جمهوريّة مُنتخبة، وقد أسهمت المعطيات الجديدة بعد الثّورة الفرنسيّة بما حملته من

(٣٧) سليمان، الزبائني وآخرون، *الأزمة الجزائريّة- الخلفيات السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة*، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربيّة، (١٩٩٩)، (ص/ ٢٣٩).

ه. إشكالية إعادة النظر في المفاهيم التي طالها الخلل في الدراسات الأنثروبولوجية الغربية:

تضعنا عملية استعراض بعض النماذج من المفاهيم ضمن الدراسات الأنثروبولوجية الغربية حول المجتمعات العربية ضمن صلب سؤال إشكالي: يتعلّق في المقام الأوّل بكيفية تقديم مقترحات عملية وموضوعية بغية إعادة النظر في هذا التراث الأنثروبولوجي الغربي؛ وبوجه خاص ما تعلّق بعدد من المفاهيم المفتاحية التي طالها الخلل ضمن عملية التوظيف، ويبدو أنّ من ضمن المقترحات الموضوعية التي يمكن تجسيدها إذا توفرت الإرادة الأكاديمية لدى الباحثين العرب المنتمين إلى حقل الدراسات الأنثروبولوجية، هي تلك المقترحات التي تقوم على حصر شامل للمفاهيم الأكثر تداولاً وحضوراً ضمن الدراسات الأنثروبولوجية الغربية حول المجتمعات العربية في مرحلة أولى، ثم القيام بجهد معرفي إضافي: يتملّ في تفعيل عملية الترجمة إلى اللغات التي كُتبت بها تلك المفاهيم المفتاحية، وهي في الغالب لا تخرج عن اللغتين الإنجليزية والفرنسية؛ وذلك بإدراجها في شكل معاجم مُتخصّصة.

إنّ الحديث عن أهمية تفعيل الترجمة بغرض تصويب المفاهيم التي طالها الخلل في الدراسات الأنثروبولوجية الغربية، من خلال

المجتمع العربي، إنّما تكمن في عدم الانسجام بين التصوّرات النظرية للمفهوم من حيث سياقاته ومرجعياته الفكرية والأيدولوجية، والواقع السياسي والاجتماعي والتّقافي العربي الحاضر لشكل مُغاير من الجمعيات الذي يبدو ظاهرياً مشابهاً لجمعيات المجتمع المدني الغربي، ممّا أدى إلى وقوع التباس في معاني المفهوم، أوقعت الباحثين عند تعاملهم معه في صعوبات عدّة، لأنّ التّنظيمات الاجتماعية المحلية لها خصوصياتها التّنظيمية المميزة لها، فهي «إحدى المُميّزات الثقافية الرئيسية للعمل التّشاركي»^(٣٧)، التي تشتهر بعراقتها، فهي تضرب بجذورها في عمق البنية الثقافية والاجتماعية للمجتمعات العربية بأبعادها التّاريخية والدينية، وهي بالإضافة إلى ذلك عبارة عن تنظيم اجتماعي ذكوري بامتياز، حيث تخضع لجملة من القوانين العرفية المتوارثة، وتعمل على تأطير المجتمع في مختلف الجوانب^(٣٨)، باعتبارها «السلطة الوحيدة لدشرة أو قرية»^(٣٩).

(٣٧) أنجلس روك، ماريا، (المرجع السابق)، (ص/١٠٠).

(٣٨) يمكن الاطلاع على أطروحة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا المنشورة لـ "Mahé Alain"، والتي يشرح عبرها بالتفصيل نموذج من التّنظيمات الاجتماعية المحلية العريقة في الجزائر، المُسمّى «تجماعت». إنان مرحلة الاحتلال الفرنسي للجزائر، انظر:

-Mahé, Alain, *Histoire de la Grande Kabylie - Anthropologie historique du lien social dans les Communautés villageoises-*, Paris, Editions Bouchene, (2006), (p/177-178).

(٣٩) أنجلس روك، ماريا، (المرجع السابق)، (ص/١٠٠).

الفاعلون لممارساتهم؟ وكيف يُعبّرون عنها؟، إذ إنّه من غير المنطقي أن نُحدِث قطائع إبستيمولوجيّة أو حواجز فاصلة بين اللّغة من جهة، وثقافة مُتكلّميها وممارساتهم الماديّة واللاماديّة بما تنطوي عليه من تمثّلات ورؤى وأفكار من جهة ثانية.

إنّ ترجمة المفاهيم في العلوم الاجتماعيّة بشكل عام والأنثروبولوجيا على وجه الخصوص ينبغي أن تتم بحذر، لأنّ هذه المفاهيم قد نشأت ضمن مناخات سوسيو-ثقافية وتاريخيّة مغايرة للمناخات السوسيو-ثقافيّة التي تُنقل وتُترجم إليها، بحيث تعكس تصوّرات ومفاهيم المجتمع والبيئة الحضاريّة الأصليّة لها، بما تنطوي عليه من مرتكزات تاريخيّة ورؤى نفسيّة واجتماعيّة، وقد أجمع كثير من الدارسين أنّ للمفاهيم هويّة ثقافية واجتماعيّة وتاريخيّة ولسانيّة، وهذه الخاصيّة تنسحب على جميع المفاهيم ضمن عائلة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، ووفق هذا المنحى الآنف الذّكر فلن يكون من المجدي خلال عملية التّرجمة إغفال أثر الهوية التي ترتكز عليها المفاهيم المترجمة، ولذا فإنّ العمليّة المنوطة بالمترجم في نقل تلك المفاهيم قد تصطدم ببعض المزالق في هذا الشّأن، بالرغم مما يتوفّر للمترجم من آليات وإمكانيّات معرفيّة ولغويّة، ممّا يجعل عمليّة التّرجمة للمفاهيم صعبة التحقق على الوجه الأتمّ، وهذا في حالة ما تمّ إغفال الإلمام بالدلالات والأبعاد الهويّاتيّة التي نشأت

إنجاز معاجم متخصّصة، ليست مجرد نقل حرفيّ لما هو موجود عندنا من مفاهيم إلى لغة الأخر، أي من اللّغة المترجمة إلى اللّغة المترجم إليها، بل إنّ هذه العمليّة أعمق بكثير، خاصّة حين يتعلق الأمر بالمفاهيم المفتاحيّة في الأنثروبولوجيا، حيث بات المعيار اللّغوي شغل الباحثين الشّاغل في الدّراسات التّرجميّة التي احتلت فيها مسألة المفاهيم الدّرجة الأولى من اهتمامهم، لأنّ «التصوّر النظري والمنهجي يُوجِبُ حين ترجمة مفهوم من المفاهيم إمعان النّظر قبل التّرجمة، والتأمّل في الأبعاد والنتائج المؤدّية إليها في الثّقافة الخاصّة حتى يمكن أن يتلاءم ما يُترجم مع تلك الثّقافة، ويجد سندًا له فيه حتى يشيع وينتشر ويؤدّي وظائفه الثّقافيّة والعلميّة والوصفيّة والتأويليّة والعمليّة»^(٤٠).

وممّا لا شكّ فيه أنّ المفاهيم ذات الصّلة بالممارسات الثّقافيّة لجميع المجتمعات الإنسانيّة دون استثناء-بغضّ النّظر عن مسألة تطوّرها أو تخلفها- تحوز على حمولة رمزيّة ذات دلالات ومعانٍ متشعّبة، وبالتالي فإنّ هذه الأخيرة لا يمكن فهمها إلّا ضمن سياق النّسق السّوسيوثقافي المُنتج لها، ولذا فإنّ التّعبير عن تلك المفاهيم من خلال توظيفها وكذا نقلها إلى لغة الباحث الدّارس للمجتمعات الغريبة عن نسقه السّوسيو-ثقافي، يجب أن تتم في أغلب الأحيان من وجهة نظر الفاعلين وليس من وجهة نظر الباحث، أي كيف يتمثّل

(٤٠) مفتاح، محمّد، المفاهيم المعالم- نحو تأويل واقعي، بيروت، المركز الثّقافي العربي، (١٩٩٩)، (ص/١٥).

- لعلّ من ضمن المزالق والمطبات التي يمكن تسجيلها على أغلب الدراسات والبحوث الأنثروبولوجية التي أنجزها الباحثون الغربيون حول المجتمعات العربية: هو وقوعها في فخّ الإسقاطات التعمّسية للمفاهيم، دون الأخذ بعين الاعتبار مسألة ملاءمتها في التعبير عن الحمولة الدلالية المقصودة خلال عملية التوظيف، أو مراعاة مدى تماشي تلك المفاهيم مع السياقات السوسيو-ثقافية للمجتمع المحلي موضوع الدراسة.

- من الضروري التعامل مع المقترحات المتعلقة بإعادة النظر في المفاهيم الواردة ضمن الدراسات الأنثروبولوجية الغربية حول المجتمع العربي بشيء من الحذر والتريث، وعدم إطلاق الأحكام المتسرّعة: حول النتائج التي يُمكن أن تُضفي إليها تلك المقترحات المُشار إليها، بخصوص بعض جوانب الإضافة المُحقّقة، وما تُبيّحه من رؤى جديدة في إثراء التصورات المرتبطة بتلك المفاهيم.

الببليوغرافيا:

- 1- أبو بلال، عبد الله الحامد، ثلاثية المجتمع المدني، بيروت، الدار العربية للعلوم، (٢٠٠٤).
- 2- أبو خزام، أنور فؤاد، معجم المصطلحات الصوفية، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، ط١، (١٩٩٣).

ضمنها هذه المفاهيم، وهو الأمر الذي قد يخل بالمعاني الحقيقية للمفاهيم المترجمة، إذ إنّ عملية الترجمة "...كثيراً ما تخضع للحظ فتصيب فتكون رمية من غير رام، وتخطئ أحياناً كثيرة فيؤدّي الخطأ إلى نتائج وخيمة في المجال العلمي والثقافي والسياسي"^(٤١).

خاتمة:

يبدو من الأهمية الملحة ونحن نُنهي هذا البحث الذي جاء بعنوان: إشكالية توظيف المفاهيم الأنثروبولوجية في دراسة المجتمعات العربية، من خلال قراءة في نماذج من المفاهيم الواردة ضمن الدراسات حول المجتمعات العربية، أن نخلص إلى بعض النقاط التي نعتبرها بمثابة نتائج أولية، نرى إمكانية استعراضها على النحو الآتي:

- إذا كانت البحوث الأنثروبولوجية التي أنجزها الباحثون الغربيون حول المجتمعات العربية قد عُرفت برؤيتها الأحادية الجانب، لأنها كانت محكومة بنزعة التّمرکز العرقي، فإنّ هذا لا يُقلّل من قيمتها المعرفية، كونها وثّقت للحياة الاجتماعية والثقافية للمجتمعات العربية، وهو ما يُوفّر للباحثين المحليين صورة عن مجتمعاتنا من منظور الآخر المُغاير، يمكن استثمارها وفق رؤية نقدية لإثراء رصيد معارفنا الأنثروبولوجية حول عدد من القضايا المتصلة بالتراث الثقافي والاجتماعي لمجتمعنا العربي.

(٤١) مفتاح، محمّد، (المرجع السابق)، (ص/١٥).

- ٣- أنجلس روك، ماريا، أنثروبولوجية الحياة اليومية في المتوسط، ترجمة حسن بن منصور، الجزائر، دار زرياب للنشر، (٢٠٠٥).
- ٤- أوجيه، مارك، مهنة الأنثروبولوجي-المعنى والحريّة، ترجمة محمّد الجولي، بيروت، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، ط١، (٢٠١٠).
- ٥- أوجيه، مارك، وكولاين، جون بول، الأنثروبولوجيا، ترجمة جورج كّتورة، بيروت، دار الكتاب الجديدة المتّحدة، (٢٠٠٨).
- ٦- إيرني، بيار، إثنولوجيا التّربية، ترجمة عدنان الأمين، بيروت، معهد الإنماء العربي، (١٩٩٢).
- ٧- بوطالب، إبراهيم، البحث الكولونيالي حول المجتمع المغاربي في الفترة الاستعماريّة، ضمن سلسلة ندوات ومناظرات رقم ١٤، بعنوان «البحث في تاريخ المغرب -حصيلة وتقويم-»، المغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة بالرباط، (١٩٨٨).
- ٨- باقادر، أبو بكر أحمد، الدّراسات الأنثروبولوجية في التّرجمات العربيّة، ضمن كتاب ندوة «ترجمة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة في العالم العربي المعاصر»، تحت إشراف ريشار جاكمون، المغرب، منشورات مؤنّسة الملك عبد العزيز للدّراسات الإسلاميّة والعلوم الإنسانيّة بالدّار البيضاء، (٢٠٠٨).
- ٩- بيرك، جاك، في مدلول القبيلة بشمال إفريقيا، ضمن كتاب الأنثروبولوجيا والتّاريخ حالة المغرب العربي، ترجمة عبد الأحد السّبيتي وعبد اللّطيف الفلق، الدّار البيضاء، دار توبقال للنّشر، ط٢، (٢٠٠٧).
- ١٠- لكرك، جيرار، الأنثروبولوجيا والاستعمار، ترجمة جورج كّتورة، بيروت، المؤنّسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر والتّوزيع، (١٩٩٠).
- ١١- الجولي، محمّد الهادي، مجتمعات للذاكرة مجتمعات للتّسيان، تونس، سراس للنّشر، (١٩٩٤).
- ١٢- معتوق، جمال، علم الاجتماع في الجزائر-من النّشأة إلى يومنا هذا-، الجزائر، منشورات دحلب، (٢٠٠٦).
- ١٣- مفتاح، محمّد، المفاهيم المعالم -نحو تأويل واقعي-، بيروت، المركز الثقافي العربي، (١٩٩٩).
- ١٤- منديب، عبد الغني، الدّين والمجتمع -دراسة سوسيولوجية للتّدين بالمغرب-، الدّار البيضاء، منشورات إفريقيا الشّرق، (٢٠٠٦).
- ١٥- سليمان، الرّياشي وآخرون، الأزمة الجزائرية -الخلفيات السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة-، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربيّة، (١٩٩٩).
- ١٦- الصبيحي، أحمد شكر، مستقبل المجتمع المدني في الوطن العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربيّة، (٢٠٠٠).
- ١٧- ولد خليفة، محمّد العربي، بيرك المفكّر والإنسان -من فرندة إلى سان جوليان-، مجلّة



الثقافة، الجزائر، منشورات وزارة الثقافة الجزائرية، السنة العشرون، العددان III-II، سبتمبر-ديسمبر، (1995).

ب- الأجنبية:

- 18- Auzias, Jean-Marie, **L'anthropologie Contemporaine**, Paris, Puf, (1976).
- 19- Doutté, Edmond, **Les Marabouts-Notes sur L'islam Maghrébin-** Paris, Ernest- Leroux, (1900).
- E, **Saints of the Atlas**, Chicago, The University of Chicago Press, Gellner, (1969).
- 21- Lucas, Philipe, et Vatin, Jean-Claude, **L'Algérie des anthropologues**, Paris, François Maspero, (1975).
- 22- Mahé, Alain, **Histoire de la Grande Kabylie -Anthropologie historique du lien Social dans les Communautés villageoises-**, Paris, Editions Bouchene, (2006).
- 23- Pierre, Bonte, et Michel, Izard, **Dictionnaire de l'ethnologie et de 'anthropologie**, Paris, puf, (2002).